

الدولة الجزائرية الأولى (PEA)

1830 - 1514

دراسة مؤسسية

I

الوضعية العامة للمغرب الأوسط قبيل قيام الـ PEA
وحتى مغادرة خير الدين الجزائر سنة 1533

الدكتور علي أجقر

معهد الحقوق - جامعة باتنة

مقدمة :

تندرج هذه الدراسة في إطار بحث موسع للفترة الممتدة من سنة 1514 إلى سنة 1830، والتي عادة ما اصطُح على تسميتها بالفترة التركية أو العثمانية. سنحاول من خلال هذه الدراسة رسم لوحة متكاملة لهذه الفترة الطويلة من العمل الجاد، محاولين الإجابة على عدة تساؤلات مازالت إلى حد الآن تسيل جبرا كثيرا: فتح مدينة جيجل الحفصية وافتكاكها من أيدي الجنوبيين سنة 1514، من قبل الأخوين بابا عروج وخير الدين، هل يعتبر بداية تاريخ الـ PEA؟ وإذا كان كذلك فهل هذه الدولة كانت تتمتع فعلا باستقلال حقيقي؟ وهل كانت حقا قمارس سيادتها الكاملة داخليا على كامل التراب الذي كان يعرف قبل 1514، بالمغرب الأوسط أو بلاد الواسطة، وخارجيا في

ممارستها وعلاقاتها مع الدولة العثمانية على الخصوص ودول العالم الأخرى على وجه العموم؟

إن المهتم بتاريخ هذه الفترة (1514 - 1830)، سواء كان ذلك الاهتمام منصبا على جوانب تاريخية بحتة أو مؤسسية، سيصاب بنوع من الدهول لما نسج حولها من آراء تهدف إلى التقليل من شأنها وتلطيف سمعة صانعيها (Artisans) لا شيء سوى لأن هؤلاء القادة عرفوا كيف يردون الصاع للأوروبيين وعلى رأسهم الأسبان. فحينما يطالع المرء هذه الآراء يخيل إليه بأن الـ PEA كانت دولة قمارس للصوصية وكانت وكرا للسفاكين وملجأ للمغامرين⁽¹⁾، ومن ثمة أصبحت الجزائر حسب وجهة نظر هؤلاء موطنًا للدكتاتورية، للإرهاب ولإنتهاك حقوق الإنسان.

هذا التشويه العمدي خاصة من قبل الفرنسيين بعد احتلالهم للجزائر كان في رأينا يهدف لتحقيق الأغراض التالية:

- (1) تبرير الاحتلال الفرنسي للجزائر.
 - (2) إضفاء طابع المهمة الحضارية (Mission civilisatrice) على هذا الاحتلال.
 - (3) فرض وترسيخ مقولة "الاستعمار التركي" أو السيطرة التركية.
 - (4) ضرب المرجعية الشرقية (Référence orientale).
 - (5) تكريس المرجعية الفرنكو غربية (Référence franco-occidentale).
- هذه الاستراتيجية التشويهية (Stratégie déformatrice)، لأزهى فترة في تاريخ الجزائر ولأعظم قادة عرفتهم البلاد، قد حققت بعض النجاحات وذلك بوجود من يرجع أسباب تخلفنا واعتمادنا في كل شيء على الخارج إلى ما يسمونه "بالاستعمار التركي"، ويترتب على هذه المغالطة التاريخية بأن يصبح الوجود الفرنسي في الجزائر - في نظر هؤلاء - مهمة حضارية إنقاذية (Mission civilisatrice/salutaire).

وقد تمكنت القوى الأوروبية وعلى رأسها اسبانيا في ظرف وجيز من إخضاع المنطقة خاصة المغرب الأوسط الى نفوذها والقضاء على أي أمل للمقاومة لدى سكانها. ⁽¹⁾ هذه السيطرة السريعة ساهم في تحقيقها عوامل كثيرة منها:

- (1) الفوضى التي كانت تعم المنطقة.
- (2) إنعدام القوة الدفاعية .
- (3) التناحر المزمع بين القبائل المتقاسمة للمغرب الأوسط.
- (4) إنعدام وجود قوة دفاعية مشتركة بين مختلف قبائل المغرب الأوسط ودولة تلمسان.

في ظل هذه الظروف القاسية التي تعيشها منطقة الشمال الأفريقي بعامة والمغرب الأوسط بخاصة كان الصراع على أشده بين معسكرين: إسلامي ومسيحي. الدولة العثمانية تقف في الجانب الإسلامي والمملكة الإسبانية الكاثوليكية تقف في الجانب المسيحي. فالصراع إذا صراع حضاري بين الإسلام والمسيحية: فباسم المسيحية احتل المغرب الأوسط وباسم الإسلام أعيد فتح هذا المغرب وتحريره من جديد.

2- وضعية المغرب الأوسط بعد قيام الـ PEA:

2 - 1 - وصول بابا عروج وخير الدين إلى السواحل المغربية : عودة الأمل.

قبل وصول بابا عروج وخير الدين ⁽²⁾ الساحل الحفصي المحتل سنة 1512، مدينة الجزائر نواة الـ PEA لم تكن أكثر من دشرة ومن ثمة مساهمتها في تاريخ المغرب الأوسط كانت غير واضحة المعالم، غير أنه وابتداء من الثلث الأخير من القرن الخامس عشر حاولت أن تظهر كحاضرة مستقلة عن الزيبانيين تحت إشراف ثعاليبي النتيجة وهذا الطموح

بدأ يتميز بعد سقوط غرناطة الأندلسية وما ترتب على ذلك من فرار أعداد كبيرة من الأندلسيين (مسلمين و يهود) هذه الهجرة الجماعية ساعدت على ازدياد عدد سكان المدينة وتطوير النشاط التجاري بها.

بعد إحتلالهم للمرسى الكبير 1505، فرض الإسبان على الجزائر ضريبة سنوية، و لمراقبة المدينة وحصارها عملوا على بناء قاعدة مشهورة تعرف باسم البنون (Penon) والتي كانت بمثابة شوكة في ظهر الجزائر.

وأمام تفاقم الوضع وعجز السكان عن حماية مدينتهم فك الحصار عنها اضطروا إلى طلب النجدة من بابا عروج وخير الدين اللذين كانا قد تمكنا من فتح مدينة جيجل والاستقرار بها، بعد طرد الجنوين منها سنة 1514.

لقد أرسل سالم بن التومي⁽³⁾ باسم مجلس أعيان مدينة الجزائر⁽⁴⁾ رسوله إلى مدينة جيجل طالبا المساعدة من بابا عروج وأخيه على تخليص مدينة الجزائر من الاسبان، فلبى الطلب على الفور. جهز الأخوان حوالي ثلاثة آلاف من رجال القبائل أنفسهم واتجهوا لإتقاذ الجزائر تحت قيادة بابا عروج⁽⁵⁾، وتمكنوا من دخولها واستقبلوا من طرف سكانها كمحررين فاتحين.

أما شيخ بني مزعنة، سالم بن التومي، فبعد أن رأى أن مدينة الجزائر صارت تملك من القوة ليس فقط للدفاع عن نفسها وإنما لتوسيع نطاق سلطتها⁽⁶⁾ من جهة ومدى تعلق السكان وأعيان المدينة وأعابهم بابا عروج، أدرك أن عهد المشيخة قد ولى فبدأ في خلق المصاعب أمام عروج مما أدى إلى القطيعة بين الرجلين. فكانت النتيجة إعدام سالم بن التومي وتعليق رأسه في مدخل أحد أبواب المدينة (باب عزون).

أما ابنه فقد فر إلى وهران للإحتماء بالإسبان والاستنجاد بهم للإنتقام من قاتل أبيه واستعادة مشيخته. ومن وهران دخل إلى اسبانيا ليعد العدة مع حلفائه الاسبان لمهاجمة الجزائر.

وفاة سالم بن التومي أخمدت نار الفتنة وتركت المجال واسعا أمام بابا عروج للتحكم في زمام الأمور أكثر وإعداد نفسه لتحقيق مشروعه التحريري التوحيدي الكبير. ولتحقيق هذا المشروع قام بابا عروج بما يلي:

(1) تنظيم المؤسسة العسكرية وذلك بإقامة التحصينات القوية وإنشاء حاميات عسكرية خارج المدينة حتى لا ينشغل الجند بمشاكلها.

(2) توسيع نفوذه وذلك بإخضاع القبائل إلى السلطة المركزية.

(3) تقسيم الأراضي التي تحت سيطرته إلى مقاطعتين شرقية وغربية : الغربية التي عاصمتها الجزائر كان يديرها بنفسه ، أما الشرقية التي عاصمتها دلس فقد عين لإدارتها أخاه خير الدين ⁽⁸⁾.

(4) إنشاء " مجلس للدفاع " يضم كبار قادة الجيش وهو بمثابة مجلس قيادة ثورة بيده كل السلطات .

هذه النجاحات التي حققها بابا عروج وطموحه في القضاء على الوجود الاسباني أزجج القوى الأروبية وعلى رأسها اسبانيا فراحت تعمل على زرع البلبلة في وسط القبائل وتحريضها على الثورة من أجل الإطاحة ببابا عروج: إتفقت هذه القبائل مع الاسبان الموجودين في الحصن للهجوم على قوات بابا عروج وإعادة السلطة للزعماء الذين أبعادوا عن مركز القرار.

ولكن بابا عروج تمكن بواسطة " جهازه السري " المنتشر بين القبائل من كشف هذه المؤامرة والقضاء على مدبرها ومن ثمة تمكن من فرض سيطرته الكاملة على النتيجة.

2 - 2 - الجزائر تستعيد المبادرة تحت قيادة بابا عروج:

اسبانيا لم تفقد نجاحات بابا عروج الأمل في السيطرة والعودة من جديد ولو بطريقة غير مباشرة، فاستغلت وجود ابن سالم بن التومي في أراضيها من جهة والخوف

المتزايد لحكام تلمسان من اهاب عروج من جهة أخرى من أجل محاولة إزاحته عن الجزائر. وبعد وفاة الملك فرديناند (Ferdinand) سنة 1516 خلفه مؤقتا في إدارة شؤون المملكة الكاردينال تسيميناس (Tsiménès) الذي وجد الفرصة سانحة لتحقيق حلمه في القضاء على الدولة الناشئة وتنصيب ابن سالم بن التومي حاكما على الجزائر فعمل على تجهيز جيش قوامه ثمانية آلاف مقاتل واسندت قيادته إلى ديقو دي فيرا (Diego de vera)⁽⁹⁾. عروج من جهته جابه الموقف بحزم ودعا "مجلس الدفاع" للإلتعاد⁽¹⁰⁾ لدراسة الموقف واتخاذ الإجراءات اللازمة للتصدي لهذه الحملة العسكرية. غير أن الخطة الهجومية غير المحكمة قد أعاققت الاسبان على الهجوم فمكن ذلك قوات بابا عروج ومدفعيته من إلحاق خسائر كبيرة في صفوفهم، وعاد القائد دي فيرا و من تبقى من جنده إلى اسبانيا يجرون أذيال الهزيمة تاركين وراءهم 3000 قتيل و 400 أسير⁽¹¹⁾.

هذا الانتصار شجع عروج على التوجه إلى تلمسان لتأديب ملكها بوحمو على خيانتة و وقوفه إلى جانب ديفيرو في حملته على الجزائر. في طريقه إلى تلمسان تمكن بابا عروج من السيطرة على تنس وإزاحة حاكمها الزباني، وأثناء تواجده بالمدينة وصله وفد من سكان تلمسان يستنجلون به ضد ملكهم الموالي للاسبان⁽¹⁰⁾ والمفتصب لعرش ابن أخيه. انتهز عروج هذه الفرصة وقصد تلمسان واستطاع أن يتغلب على قوات بوحمو وأرغمه على ترك العرش والذهاب إلى فاس للإحتماء بالمرينيين.

سيطرة عروج على تلمسان أضرت كثيرا بالمصالح الاسبانية بوهرا ن مما دفع الملك الاسباني شارل - كانت (Charles-Quint) إلى أن يطلب من حاكم وهران المركيز دي قوماراز (Marquis de Gomarez) بمهاجمة تلمسان وإعادة بوحمو إلى السلطة⁽¹¹⁾. انتهت هذه الحملة بقتل إسحاق أخو عروج الذي كان قائدا للقلعة. حاول عروج إنقاذ ما يمكن إنقاذه والفرار صحبة ما تبقى من جنوده، وهم في الطريق اعترض طريقهم فرسان اسبان بقيادة مارتان دار قوت (Martain d'Argote) فجرت بينهم معركة استشهد فيها

القائد الجزائري بابا عروج، وكان ذلك سنة 1518 / 924 هـ وعمره 44 عاما قضى ثلاث عشرة سنة منها في خدمة الجزائر⁽¹²⁾. ورغم ما كان لهذه الوفاة من أثر على الجزائريين إلا أن هؤلاء لم يستسلموا بل واصلوا المسيرة.

2 - 3 - خير الدين يتولى القيادة ويكمل المسيرة :

تولى خير الدين القيادة بعد وفاة أخيه ورفض طلبا تقدم به أعضاء " مجلس الدفاع" يتضمن تعيينه ملكا على الجزائر⁽¹³⁾. رفض كهذا يدل على دهاء سياسي كبير: خير الدين أدرك أن قبوله للعرض سيجعله تحت رحمة أعضاء هذا المجلس من جهة ورغبته في إبعاد العسكريين عن الخوض في الأمور السياسية من جهة أخرى. وجهة نظرنا هذه يفسرها قبول خير الدين لاحقا لطلب مماثل تقدم به أعضاء " مجلس أعيان مدينة الجزائر" حينما هم خير الدين بالعودة إلى اسطامبول.

لقد عمت الفرحة اسبانيا وكامل أوروبا لدى سماع نبأ وفاة القائد الجزائري بابا عروج و أقيمت الأفراح بالنسبة ولم تضيع اسبانيا - أكبر الخاسرين في الجزائر - الوقت كثيرا، فكلف الملك شارل كانت القائد هيجو دي منكاد (Hygo de Mancade) نائب ملك سيسيليا (Cicile) بقيادة هذه الحملة، التي كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى استرجاع مجد افتقد وسلطان ضاع، و في الوقت نفسه محو آثار الهزائم المنكرة في الجزائر⁽¹⁴⁾. إنظم إلى هذه الحملة ملك تلمسان حيث وعد بتقديم قوة خاصة تتكون من رجال قبائل النتيجة⁽¹⁵⁾

تساعد في عمليات إقتحام المدينة و الإستيلاء عليها. القوات الاسبانية رست في ميناء الجزائر في 17 أوت 1518 وبدأت على الفور عملية الإنزال، غير أن الخلاف ما لبث أن ظهر في صفوف القيادة الإسبانية. منكاد (Moncade) قائد الحملة يريد الهجوم ومرينو دي روبرا (Marino de Robura) قائد المدفعية المكلف بالقيادة العليا للحصار يريد التريث الى حين وصول القوات العربية. لقد تم الأخذ برأي مرينو و مرت ستة أيام دون أن

تصل تلك القوة التي تنتظر بفارغ الصبر و السبب في ذلك يعود إلي رفض الغالبية العظمى من أفراد القوة العربية تلبية دعوة ملك تلمسان للقتال إلى جانب المسحيين. هذا الموقف المسؤول والواعي كان له بالغ الأثر في تحطيم معنويات الجيش والقادة الاسبان إن لم نقل كان أحد الأسباب الرئيسية في هزيمتهم⁽¹⁶⁾.

هذا الإنكسار الإسباني شجع خير الدين على المضي قدما في إنجاز المشروع التحريري التوحيدي الذي خطه بابا عروج ومات من أجله، كما رفع معنويات الجنود وأثبت فاعليتهم وقدرتهم في الدفاع وتحقيق الانتصار وأخيرا محا من ذاكرة الجزائريين سنين طويلة كلها معاناة وانكسارات وخفف عنهم الأحزان التي خلفها فقد قائدهم المنتصر بابا عروج وأبو الدولة الجزائرية الأولى.

ففي مثل هذه المواقف يعبر الشعراء عن فرحة السكان وتأييدهم لقائدهم واعتزازهم بدولتهم وافتخارهم بمؤسستهم العسكرية: فمن بين ما قيل في مثل هذه المناسبات نورد للقارئ الكريم هذه الأبيات التي تصور شعور الجزائريين حينما يحقق جيشهم إنتصارات على الأعداء⁽¹⁷⁾:

بمدافع أبعدت عن حماها	كل من جاء قاصدا للفساد
كسروا جميع فلکهم وأبادوا	منهم كل مستطيل النجاد
فسل البحر كم رمى من جسوم	لهم ذات سطوة وعناد
عاف حوت البحر منها لحومها	لم تر الما منذ يوم الولاد
فهي فوق الرمال يأكل منها	جائع الرخم والحدى والجراد

إن إتساع رقعة الدولة وتطوير مؤسستها العسكرية دفع خير الدين إلى إحداث أول تقسيم إداري، حيث قسم البلاد إلى مقاطعتين شرقية وغربية: الشرقية اسندت قيادتها لأحمد بن القاضي والغربية إلى محمد بن علي وكلاهما من أصل مغرب أوسطي، عملا

ولسنوات طويلة إلى جانب خير الدين.

هذه التعيينات "العسكرية" تعتبر في نظرنا إلتفاتة ذكية ورغبة صادقة من جانب خير الدين لإشراك أبناء الجزائر من أصل مغرب أوسطي في تسيير شؤون دولتهم الناشئة وتحمل مسؤولية الدفع عنها من جهة، والبرهنة على أن الوصول إلى أعلى الرتب واحتلال أعلى الوظائف ليس حكرا على العناصر الجزائرية من أصل عثماني، كما تحاول إيهامنا بذلك كثير من الكتابات والآراء، من جهة أخرى.

2 - 4 - قرار خير الدين العودة إلى اسطامبول وموقف الجزائريين

من ذلك:

بعد هذه الإنتصارات المتتالية على الاسبان وبروز قادة جزائريين بإمكانهم السير في الخط الذي رسمه بابا عروج ومن بعده خير الدين والمتمثل في تحرير البلاد من الإستعمار وتوحيد ما تبقى من أراضي المغرب الأوسط، سيما وأن الجهاز العسكري أصبح يؤدي أدواره بفاعلية الدفاع (Defense) ، الردع (Dissuasion) والهجوم (Attaque) استدعى خير الدين مجلس أعيان مدينة الجزائر للإتعاقد ليعلن لهم عن رغبته في مغادرة البلاد.

ألقى خير الدين أمام مجلس الأعيان خطابا حول وضعية " الأمة " تعرض فيه الكثير من الجوانب (الدفاع، الأمن، نظام الحكم، الهجرة ... إلخ) ، وما جاء في هذا الخطاب⁽¹⁸⁾ : " الآن ولم يبق لي شيء أفعله من أجل إسعاد مدينتكم قررت أن أغادركم وأترك إلى جانبكم فرقة كافية من المحاربين الأبطال الذين سيعملون من أجل أن يحترم اسم الجزائريين " .

خير الدين يريد أن يقول لقد دعوتوني لإنقاذكم من الخطر الذي كان يهددكم، هذه المهمة قد أكملت بنجاح وعاد الهدوء والإستقرار إلى مدينة الجزائر، والأكثر من ذلك أن

المدينة أصبحت تتوفر على نظام دفاعي فعال قادر على احترام اسم الجزائر والجزائريين "عندكم الأسلحة - يقول خير الدين - السفن والذخائر من أجل أن تقوموا بمحاولات جديدة .. حين وصلت إليكم لا يوجد ولا مدفع واحد من أجل الدفاع عن المدينة، الآن بفضل الله، لديكم أكثر من 400 مما أرغم عدوكم على ترككم".

ما بلغته الجزائر من تقدم وتطور في نظامها الدفاعي - الذي يعتبر حجر الزاوية في بناء أي دولة قوية في ذلك الوقت - هو الذي شجع خير الدين على مغادرة البلاد إن كان ينوي فعلا المغادرة : يمكن أن يكون التلويح بالمغادرة مناورة سياسية منه ليضفي على حكمه الطابع الشرعي وفي الوقت نفسه سبر مدى تعلق الجزائريين به كقائد. غير أن ذلك يبقى احتمالا ضعيفا ، حيث أن خير الدين غادر فعلا الجزائر في أوت 1533 / 939هـ إلى إسطامبول لقيادة الأسطول العثماني. و هذا في حد ذاته يعتبر شرفا وفخرا كبيرين للجزائر ودليلا واضحا على مدى ما بلغته "المدرسة البحرية الجزائرية " التي وصفها مولاي بلحميسي في كتابه "La Marine Algérienne" بأنها أكبر مدارس الإسلام البحرية.

بعد الصورة التي رسمها خير الدين عن وضع المؤسسة العسكرية والتي أبرز فيها قدرة هذه المؤسسة على التصدي لكل من تسول له نفسه النيل من الجزائر، ينتقل للحديث عن النظام الذي يراه مناسبا لإدارة البلاد فيقول: " أدعوكم إلى أن تختاروا من بينكم من تعتقدون بأنه أكثر أهلية للقيادة. نصبوه أميركم ثم عاهدوه على السمع والطاعة".

هنا يدعو خير الدين أعضاء المجلس أن يختاروا لقيادة البلاد من لديه مؤهلات القيادة، بغض النظر عن حالته الاجتماعية وانتمائه القبلي. هذا الشرط ينهي تقليدا متبعا في المنطقة يولي القيادة إلى أكثر الناس غني وجاها دون الأخذ بعين الاعتبار الكفاءة. فالجزائر قبل خير الدين كانت تدار من طرف سالم بن التومي الذي كان عاجزا على حماية مدينته والدفاع عنها.

بعد عملية الاختيار تأتي عملية التنصيب والتي تشبه إلى حد بعيد أداء القسم في وقتنا الحاضر. وبما أن ولي الأمر هذا قد أختير ثم تمت عملية تنصيبه وجبت إذا معاهدته على السمع والطاعة. ثم يختم خير الدين خطابه فيقول: " حينما تجدون أنفسكم أمام ضائقة وتبرز أمامكم حالات صعبة وخطيرة، استشيروا الفقهاء وهذين القائدين الشجاعين - أحمد بلقاضي قائد المنطقة الشرقية ومحمد بن علي قائد المنطقة الغربية - والذين هم بجانبنا فيبصائحهم ومساعداتهم وعون الله ستتغلبون على كل العراقيل".

هذه الفقرة تحمل كثيرا من الدروس السياسية والتي يمكن اختصارها فيما يلي:

- حصر إختيار أمير البلاد في أحد أعضاء مجلس الأعيان.
- عامل الكفاءة والقدرة شرط أساسي في إختيار القائد.
- إبعاد العسكريين عن السلطة ليتفرغوا للدفاع عن البلاد.
- ضرورة خلق " مجلس استشاري" يضم العلماء ولا مانع من وجود عسكريين لكن اشتارتهم تكون ضرورية فقط عندما تتعرض البلاد إلى أزمات خطيرة، أما في الأمور العادية فهذه الإستشارة لا تصبح ضرورية.

أما أعضاء مجلس الأعيان فقد رفضوا رفضا مطلقا قرار خير الدين ورجوه ملحين أن يبقى بينهم لأن بقاءه سيرهب الأعداء ولا يجعلهم يحاولون العودة مرة أخرى، وفي الوقت نفسه سيردع ملوك بني زيان، الذين لم يتورعوا ولأكثر من مرة في التحالف مع الاسبان والإستنجاد بهم لضرب الجزائر.

الأكثر من ذلك أن أعضاء مجلس الأعيان حملوا خير الدين مسؤولية الدماء التي ستراق إذا ما غادر مدينة الجزائر لأنهم متأكدون أن الاسبان سيعودون وسيريقون دم المسلمين.

الإلحاح على خير الدين والتخوفات التي راودتهم يؤكد لها رد مفتي مدينة الجزائر حين يقول: "حضورك سيدي ضروري جدا لأمن هذه المدينة وسلامتها. المواطنون ليس لهم غيرك كحاكم، سيكون من غير المشرف أن تتركهم عرضة لهجومات الكفار الذين لا ينتظرون إلا الوقت الذي تبتعد فيه عنهم ليفرقوا هذه البلاد بجيش من البرابرة. تقترح على نفسك أن تذهب إلى اسطامبول لتشارك في الحملات الحربية التي يعد لها في الرميطة، لكن تخدع نفسك إذا أنت تفكر أن السماء ستأخذ ما تقول بعين الاعتبار في وقت تهمل فيه أكثر واجباتك أهمية. في القسطنطينية ألف آخرين بإمكانهم أن يحلوا محلّك، لكن هنا لا أحد يمكنه أن يشغل مكانك، والعمل الأكثر استحقاقا الذي تستطيع أن تقوم به في نظر الإله هو أن تبقي في هذه المدينة للدفاع عنها ضد أعداء الدين" كلمة المفتي يمكن أن نستنتج منها مايلي:

- بقاء خير الدين ليس مطلباً ينحصر في أعضاء مجلس الأعيان بل هو مطلب "جماهيري".

- ذهاب خير الدين يعتبر تقصيرا في الواجب وتخليا عن المسؤولية وعدم مراعاة شعور مواطنين هم في أمس الحاجة إلى بقائه.

- اعتبار خير الدين ابن الجزائر وليس لها أحسن منه ولذلك فمصلحة الجزائر قبل مصلحة اسطامبول.

- بقاء خير الدين في الجزائر واجب بمليه الشرع.

بعد المفتي تناول الكلمة خير الدين، رد فيها بالإيجاب على طلب مجلس أعيان مدينة الجزائر ومفتيها، لكن اشترط عليهم مايلي:

(1) أن يطلبوا ذلك من السلطان العثماني.

(2) أن يطلبوا الانضمام إلى مجموعة البلاد التي تؤلف الخلافة العثمانية.

(3) الماضي قدما في إنجاز وتحقيق المشروع الذي مات من أجله بابا عروج والمتمثل

في تكوين دولة مركزية قوية تكون عاصمتها الجزائر، ويكون جميع السكان من حدود تونس إلى تخوم المغرب الأقصى خاضعين لها ملتفين حولها.

لماذا هذه الشروط؟

فيما يخص الشرط الأول فإن خير الدين كثير التعلق برمز وحدة الأمة الإسلامية والتي تتمثل في شخص الخليفة العثماني.

أما فيما يخص الشرط الثاني فخير الدين يعي جيدا أن المعركة القائمة يومها بين المسيحية والإسلام ليست معركة عارضة ولا محلية وإنما هي جزء من صراع مرير عام، تقف الدولة العثمانية في جانبه الإسلامي وتقف إسبانيا ومن معها في جانبه المسيحي. ومن ثمة فإن الجزائر التي هي عرضة للتهديدات والتحرشات لابد لها من حليف قوي يكون لها كسند ومصدر للتموين بالأموال والعدة والعتاد. ومن سيكون في تلك الظروف غير الدولة العثمانية والسلطان العثماني.

أما بخصوص الشرط الثالث فتجارب خير الدين وقرسه أقنعت به بأن هذه البلاد والتي كانت تسمي المغرب الأوسط لا يمكن أن تقاوم العدو منحلة، متخصصة، كل جزء فيها منكش على نفسه في شبه إدارة اقطاعية، يتنازع الحكم فيها أمراء ومشايخ لا حول لهم ولا قوة، بل الواجب هو الوحدة.

شروط خير الدين لقيت القبول والترحاب من طرف الجميع. هذا الأخير لم يضيع الوقت كثيرا بل طلب من مجلس الأعيان أن يرسل وفدا إلى اسطامبول ليطلب من السلطان العثماني قبول دخول الجزائر في "الحلف الإسلامي".

شكل المجلس على الفور وفدا برئاسة الحاج حسين وهو أحد المقربين إلى خير الدين للذهاب إلى اسطامبول لمقابلة السلطان العثماني، الوفد كان محملا برسالة من خير الدين إلى السلطان العثماني يدعم فيها مطلب أعيان مدينة الجزائر من جهة ويشرح له فيها الوضعية السائدة في المنطقة من جهة أخرى.

بعدها أكملت البعثة الجزائرية مهمتها في إسطنبول عادت إلى الجزائر حاملة معها الراية وقرار (فرمان) الخليفة. استدعى خير الدين مجلس أعيان مدينة الجزائر وقرأ عليهم رد الخليفة الملبي لرغبة سكان الجزائر والذي يتضمن:

- السماح لهم بذكر اسمه في الخطبة.

- ضرب النقود وسكها باسمه.

- تعيين خير الدين نائبا عنه في الجزائر بمرتبة باي لار باي مع تلقيبه شرفيا

بلقب باشا.

وبذلك تدخل الجزائر وبصفة رسمية في الحلف العثماني والذي يترتب عليه أن أي اعتداء على الجزائر يعتبر إعتداء على الدولة العثمانية، وكان ذلك سنة 939هـ / 1518م ابتداء من هذا التاريخ، الذي يعتبر نقطة تحول في تاريخ الجزائر، بدأت هذه الأخيرة تحت قيادة خير الدين ومن جاء بعده، تلعب دورا هاما في الصراع الدائر في منطقة البحر الأبيض المتوسط كقوة رئيسية وكطرف أساسي.

3- الجزائر بعد تعيين خير الدين باي لا وباي وموافقة مجلس اعيان مدينة الجزائر على ذلك:

3-1 - الإمتحان العسير:

لم تمض إلا فترة قصيرة على تعيين خير الدين رسميا كحاكم للجزائر، حتى بدأت بنور الفتن الداخلية تتخمر في ذهن أحد قادة خير الدين ألا وهو أحمد بلقاضي قائد المنطقة الشرقية. تحت إغراءات حكام تونس، ثار أحمد بلقاضي على خير الدين وأعلن الحرب والدخول مع قواته في معارك راح ضحيتها أعداد هائلة من الجزائريين، لا شيء سوى لإشباع وتحقيق رغبات شخصية، في وقت كانت البلاد في حاجة ماسة إلى استقرار

الجهة الداخلية وإلى توحيد الجهود لمقاومة العدو الاسباني الذي مازال يحتل أجزاء كثيرة من البلاد.

لقد وصل أحمد بلقاضي بقواته مشارف الجزائر وتمكن فيما بعد من احتلالها، مما اضطر خير الدين للذهاب إلى جيجل ومنها إلى جربة لجمع المدد اللازم للقضاء على تمرد قائد المنطقة الشرقية وسحق قوات حسان قارة الذي، تحت إغراءات بلقاضي، استقل بمنطقة قسنطينة وضواحيها⁽¹⁹⁾. فعملية التمرد لم تقتصر على قادة من أصل مغرب أوسطي كبلقاضي وإنما قام بها أيضا قادة من أصل عثماني كما هو الحال بالنسبة لحسان ومن هنا يتبين لنا أن هذه التمردات دافعها الأساسي هو الأطماع الشخصية لا أكثر.

بعد أن تمكن خير الدين من جمع قواه عاد إلى جيجل فجاء إليه وقد يطلب منه التعجيل بالعودة إلى الجزائر لتخليصها من مظالم بلقاضي. إلتقت قوات خير الدين بالقوات المتمردة في سيباو وتمكن خير الدين من استمالة شيوخ القبائل ووقوفهم إلى جانبه فتخلوا عن بلقاضي وثاروا عليه وانتهى بذلك تمرد الذي دام حوالي عامين.

3 - 2 - الفوز الباهر:

بعد عودته إلى الجزائر وإعادة الهدوء إلى مختلف أرجائها، بدأ يعد العدة للقضاء على التواجد الاسباني وذلك بتهديم الحصن الذي بنوه لحصار مدينة الجزائر. حاول خير الدين كعادته أن يستولي على الحصن المذكور بأقل الخسائر فأرسل جواسيسه إلى داخل الحصن متلذذين بأنهم اعتنقوا المسيحية، غير أن الخطة لم يكتب لها النجاح وذلك بكشف حقيقة المتسللين.

بعدها لم يبق أمام خير الدين إلا الإعداد لمهاجمة الحصن: طلب من قائده مارتان دي فيرقاس (Martain de Vergas) وجنوده الاستسلام الشرفي. غير أن هذا القائد، رغم الحصار الذي تعرض له، رفض الرضوخ إلى طلب خير الدين، حينها قرر هذا الأخير

الإستيلاء على الحصن بالقوة وبدأت قواته في ضربه بالمدفعية وكان ذلك يوم 6 ماي 1529. لقد دام الحصار مدة 15 يوما انتهى بتدمير الحصن والقضاء على الحامية الموجودة بداخله وإلقاء القبض على القائد مارتان حيا.

لقد كان لتهديم الحصن أكبر الأثر في نفوس الجزائريين الذين وجدوا في تهديمه دليلا حيا على ما وصلوا إليه، تحت قيادة خير الدين من تقدم في المجال العسكري، الذي سيؤهلهم بدون شك إلى لعب دور هام في البحر الأبيض المتوسط كقوة تتصدى وتحدي، إضافة إلى ذلك تهديم الحصن الذي مهد الطريق أمام حاكم ال PEA لتحقيق حلم بابا عروج المتمثل في جزائر محررة، موحدة تضم جميع أراضي المغرب الأوسط سابقا وأجزاء كثيرة من أراضي الدولة الحفصية (أنظر الخريطة رقم : 1).

إستنتاج :

إن هذه المكانة التي وصلت إليها ال PEA تعود في واقع الأمر، إلى الإهتمام الذي أولاه بناتها بابا عروج وخير الدين، ومن جاء بعدهما والذين وضعوا كل ما في إمكانهم لبناء قوة بحرية شعارها التصدي والتحدي.

لقد جعلوا من هذه الدولة لأول مرة في التاريخ قوة حقيقية هزمت إسبانيا وأرعدت أوروبا، واستحقت بأن يطلق عليها "بلد الجهاد" وعلى مؤسساتها العسكرية "أكبر مدارس الإسلام البحرية".

لقد استطاعت هذه المؤسسة أن تتحمل بنجاح كل الأعباء التي أنيطت بها وما أكثرها بدءا بالدفاع عن السواحل الجزائرية ومرورا بمراقبة التجارة البحرية ومد يد العون إلى مسلمي الأندلس وإنقاذهم من الموت المحتوم (حوالي 70 ألف مسلم أنقذتهم الأساطيل الجزائرية في عرض المياه الإقليمية الإسبانية).

الهوامش:

- (1) بين 1505 - 1511 تمكنت إسبانيا من السيطرة على جميع المدن الساحلية الحفصية والمغرب أوسيطه ماعدا جيجل التي كانت تحت حكم الجنووين (الطليان) منذ 1226.
- (2) بابا عروج وخير الدين جزائريان من أصل عثماني ولدا في جزيرة ميتيلان (MYTILENE) اليونانية (Lesbos) المقابلة للأناضول. لمزيد من المعلومات أحيل القارئ إلى كتاب:

STANDER (Rang) et FERDINAND (Denis): Rgence d'Alger, Histoire des barbarousse, ed. Bouslama, Tunis , T1.

- (3) شيخ بني مزعنة، ينتمي إلى إحدى العائلات المتيجية الثرية.
- (4) عبارة عن برلمان يضم فقهاء وعلماء وأثرياء مدينة الجزائر. يجتمع هذا المجلس لبحث الأمور المختلفة التي تهم المدينة وسكانها.
- (5) أما خير الدين فكان في تونس من أجل جميع الجنود والمدد اللازم الذي يمكن من الوقوف في وجه القوة الاسبانية.
- (6) لم يضيع عروج الوقت كثيرا في الجزائر، فجهز قواته واتجه الى شرشال فاحتلها ومنها إلى تلمسان، وربما كان ذلك من أجل تجنيد أندلسيين مستقرين في المدينة نظرا لخبرتهم القتالية كما قام بمهاجمة الحصن، لكن لم ينجح بسبب قلة العدة الحربية وبالطبع بسبب إنعدام النظام المدفعي.
- (7) يبدو أن الوضعية الحربية هي التي دفعت بابا عروج أن يجمد مؤقتا "مجلس أعيان مدينة الجزائر".

(8) Kaddache Mahfoud , l' Algerie pendant la période attomane, OPU, 1990, p 8

(9) Rozet et Carrette, Algerie, ed. Bousalama, Tunis. 1980 , p.20 .

- (10) يتكون هذا المجلس من 60 عضوا غالبيتهم عسكريون، ويعتبر أول مؤسسة عسكرية في البلاد.

(11) المدني أحمد توفيق، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791. المؤسسة الوطنية

(12) قام أبو حمو وبمباركة الاسبان ومساعدتم بعزل ابن أخيه فأثار ذلك غضب التلمسانيين.

(13) لمزيد من المعلومات حول هذه الحملة أنظر كتاب . Carrette , op.cit. p.222.

(14) عاد أبو حمو إلى الحكم وأرغمه الاسبان على دفع ضريبة سنوية تقدر بـ 1200 دوكا ذهب كدليل على خضوعه لهم (ضريبة الخضوع).

(15) Carrette, op.cit. p.220

(16) تتكون هذه الحملة من 4500 جندي مسيحي، 38 باخرة حربية إضافة إلى بواخر أخرى لنقل العتاد.

(17) نفس التصرف الذي ضيع الأندلس يتكرر في المغرب الأوسط لتضييعه، لكن مجيء بابا عروج وخير الدين أنقذ الموقف.

(18) حسب ما روته Carrette أنه في اليوم الثامن للحصار هبت عاصفة هوجاء حطمت 26 سفينة وأهلكت 4 آلاف جندي غرقا، حيث لم يصل منهم رفقة القائد منكاد إلى التراب الاسباني إلا عدد محدود جدا. لقد ترك الاسبان وراءهم كل ما جاؤا به من عتاد غنمه جيش الجزائر "المتنصر".

(19) أخذت هذه الأبيات من كتاب :

BELHAMISSI (Moulay): Alger, La ville aux mille canons, ENL. 1990, p.33.

(20) أنظر النص الكامل للخطاب في :

Régence d'Alger , op. cit , p.127 et suiv.

(21) أجقو (علي) الدولة الجزائرية الأولى : محاضرات في تاريخ المؤسسات ألقيت على طلبة السنة الأولى حقوق للعام الجامعي 93 - 1994 .